٣٦ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

الأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الحادي عشر ـــ « الخرافات »

هناك أشياء مختلفة يعدها المسلمون كالأحجبة ، مثل تراب القبر النبوي وماء زمزم المقدس وستار الكعبة الأسود[1] . ويقدر المسلمون ماء زمزم كثيراً لأنه يُرش على الأكفان . وتمنى أعرابي كنت أعطيته في الصعيد أثناء زيارتي الأولى لمصر دواء « أفاده » أسأل عن قليل من ماء زمزم إذ أن الكثير من المراكب الناصة بالحجاج العائدين من مكة كانت نازلة في مجرى النيل . وربما ظن الرجل لسؤالي هذا أنني مسلم تقي ، ومن ثم منحني ما كنت أحاول الحصول عليه ليعبر عن امتنانه . فذهب إلى منزل صديق له وعاد إلى مركبي حاملاً ربطة صغيرة فتحها أمامي قائلاً : «ها هي ذي أشياء أعرف أنك ستقدرها تقديراً عظيماً . ها هما علبتان من القصدير ملآنتان بماء زمزم ، إحداهما لك تحتفظ بها لترشها على كفنك . وهذا سواك غُمس في ماء زمزم فتقبله مني ونظف به أسنانك فلن تؤلمك ولن تتلف أبداً » . وأضاف قائلاً ، وهو يظهر لي ثلاث كعكات من التراب الأشهب صغيرة مستطيلة مسطحة طول كل منها قيراط تقريباً وقد طبع عليها : باسم الله ، تراب من أرضنا ، مزج ريق بعضنا . وهذه صنعت من تراب فوق قبر الرسول صلعم ، وقد اشتريتها بنفسي عند عودتي من الحج ، وإني أعطيك إحداها وستجد فيها شفاء من كل داء . وسأحتفظ بالثانية لي . أما الثالثة فنأكلها معاً . وعلى ذلك كسر إحدى الكعكات نصفين وأكل كل منا نصيبه . وقد وافقته على أنها لذيذة وقبلت هداياه مسروراً . وقد أمكنني فيما بعد أن أزيد ما عندي من تحف عن مكة ومن ذلك قطعة من ستار الكعبة أحضرها الشيخ ابراهيم[1] (بركهارت) من مكة وأعطاني إياها وريثه عثمان . وتوضع الكعكة أحياناً في غلاف من الجلد وتحمل كتعويذة ، وتصنع أحياناً أقراصاً على شكل الكمثرى الصغيرة وبحجمها وتعلق على الستر المحيط بمقام الأولياء أو على المقام ذاته أو على نوافذ المقام أو بابه .

والأحجبة التي يستعملها المصريون لجلب السعادة أو منع الشقاء كثيرة ؛ والعادات الخرافية التي يمارسونها لهذه الأغراض مختلفة بحيث لا يكفي لوصفها مفصلة مجلد كبير . وتسمى هذه الأساليب التي لا يكون أساسها الدين أو السحر أو التنجيم « علم الرُّكَّة » إشارة إلى سخافتها ، ولأن النساء يعتمدن عليها غالباً . ويعتبر البعض هذه الكلمة تحريفاً عامياً لعبارة « علم الرُّقْية » أي علم السحر . ويرى البعض الآخر أنها حلت محل العبارة الأخيرة بطريق التورية . وقد ذكرت عرضاً بعض العادات مما وصفته ، وسأذكر بعض أمثلة أخرى .

من الشائع كثيراً أن يعلق القاهريون عود الند فوق أبواب المنازل الجديدة خاصة . ويعتبر هذا حجاباً يكفل للسكان عمراً مديداً وحياة سعيدة وللمنزل بقاء طويلاً[2] . ويعتقد النساء أيضاً أن الرسول يزور المنزل الذي يعلق فيه هذا النبات . ويبقى العود معلقاً هكذا بدون طين أو ماء سنوات عديدة . ويزهر أيضاً . وقد سمي لذلك « صبراً » وعلى الأصح « صبّارة » إذ أن كلمة « صبر » تطلق عامة على العصير .

وجرت العادة عند ما يُخشى شر إنسان أن يكسر خلف ظهره وعاء من الفخار . ويُفعل هذا أيضاً لقطع كل علاقة أخرى مع مثل هذا الشخص .

ويعمد الجهلاء في مصر حيث ينتشر الرمد إلى الكثير من

(١) يعلق على الكعبة سنوياً ستار جديد في اليوم الأول من عيد الأضحى الذي يتبع الحج مباشرة . ويقطع الستار القديم قطعاً يباع أكثرها إلى الحجاج .

(١) يوحنا لدفيج بركهارت رحالة ومستشرق سويسري (١٧٨٤ ـ ١٨١٧) سافر إلى سوريا ومصر ، وأسلم أو ادعى الاسلام للحصول على معلومات أوفى عن الحياة في الشرق ، وتسمى باسم ابراهيم بن عبد الله . وحج إلى مكة ، فكان أول أوربي أو مسيحي يدخل الأراضي المقدسة . توفي بالقاهرة ودفن فيها . وله عدة مؤلفات منها : رحلات إلى النوبة ، رحلات إلى سوريا ، والأرض المقدسة . الأمثال العربية أو عادات المصريين المحدثين وشمائلهم . (المترجم)

(٢) وقد روى أحد السياح أن هذا يكون في منازل الحجاج فقط . ولكن الحال ليس كذلك على الأقل في مصر .

العادات الخرافية المضحكة لمعالجة هذا المرض فيأخذ البعض قطعة طين من جسر النيل عند بولاق أو بالقرب منها ثم يعبرون النيل ويضعون القطعة على الجسر الآخر عند (امبابه) وحسبهم هذا لضمان الشفاء . ويعلق آخرون للغرض ذاته فى غطاء الرأس فوق الجبهة أو العين المريضة قطعة ذهبية (بندق) ذات وصف خاص متقابلة النقشين[1] غير أنه يعتقد أن دخول المرء ، حاملاً فى جيبه بندقيا أو ريالاً على المريض بالرمد أو يحمى مما يزيد المرض . والاعتقاد العام أيضاً أنه إذا دخل لمرء غير طاهر على مصاب بالرمد يشتد المرض عليه وتظهر نقطة فى إحدى عينيه أو فى كلتيهما . وأعرف رجلاً أصيب بالرمد فحبس نفسه فى غرفته ثلاثة شهور مدة المرض خوفاً من ذلك ، فلم يسمح لأحد بالدخول عليه ، وكان خادمه يضع الطعام خارج الغرفة عند الباب ؛ وأصيب مع ذلك بنقطة على إحدى عينيه .

وكثيراً ما يقوم النساء بعادة أخرى شديدة الغرابة تتقزز منها النفس منعاً للعقم

تعد ساحة الرميلة الكبرى غربى القلعة مسرحاً لإعدام المجرمين . وكان فيما مضى يكاد يضرب عنق المحكوم عليهم بالإعدام فى العاصمة دائماً فى هذا المكان من المدينة . وجنوبى هذا المكان بناء يسمى « مغسل السلطان » حيث توضع جثة المضروب عنقه على مائدة حجرية لغسلها قبل الدفن . وتتجمع المياه فى حوض لا يفرّغ أبداً فيظل ملوثاً بالدماء كريه الرائحة . فيذهب الكثير من النساء إلى ذلك المكان للبرء من الرمد أو للحصول على النسل أو لتعجيل الولادة فى حالة الحمل المتأخر . فتمر المرأة صامتة ، والصمت لازم إطلاقاً ، تحت المائدة الحجرية متقدمة بالقدم اليسرى ، ثم تمر فوق المائدة سبع مرات وتغسل بعد ذلك وجهها بالماء الدنس . وتعطى كهلاً وزوجه بلازمان هذا المكان خمس فضة أو عشرة ثم تنصرف وما زالت صامتة . وكثيراً ما يفعل ذلك المصابون بالرمد من الرجال . ويقال إن هذا المغسل بناه بيبرس الشهير قبل أن يصبح سلطاناً عند ما لاحظ جثث المحكوم عليهم ترفس وتدفن دون أن تغسل . ويخطو بعض النساء جثة المعدم سبع مرات صامتات ليصبحن حبالى . ويغمس البعض الآخر ، مدفوعاً بالرغبة نفسها ، قطعة من القطن الزهر فى الدم ويستعملها فيما بعد بطريقة يجب ألا أذكرها

(١) ويسمى هنا « بندق مشاهرة »

وهناك عادة مضحكة يمارسها المصريون لعلاج بثرة تظهر على حافة الجفن ويسمونها « شحّانه » ومعنى هذه الكلمة الحرفى سائلة[1] . فيذهب المصاب إلى سبع نساء تسمى كل منهن فاطمة فى سبعة بيوت مختلفة ؛ ويسأل كلاً منهن قطعة خبز . ويتكون الدواء من هذه القطع السبع . وأحياناً يخرج المصاب فى حالة مشابهة وللغرض نفسه قبل طلوع الشمس إلى المقابر ويدور حولها صامتاً من اليمين إلى اليسار بعكس الطريقة المعتادة . وهناك طريقة وهمية أخرى للعلاج وهى أن يثبت المصاب قطعة قطن على طرف عصا ثم يغمسها فى أحد الأحواض التى يشرب منها الكلاب فى شوارع القاهرة ويمسح العين بها . ويهتم المريض هكذا بوقاية يده من الماء الدنس عند ما يوشك أن يضع منه على موضع آخر من جسمه

ويعلق بعض المصريات المسلمات فى رقابهن أصبعاً مجففة فصلت عن جثة مسيحى أو يهودى متوهمات أن ذلك يعالج الحمى المتقطعة (الملاريا) . وتدل هذه العادات دلالة تستحق الاعتبار على مفعول الخرافة المنحط وتأثيرها القوى على العقل ، إذ أن المسلمين على العموم يدققون فى مراعاة الفروض الدينية التى تأمرهم بالامتناع عن كل دنس أو قذر

جرت العادة عند ما يعجز الطفل عن المشى بعد أن يدرك السن المناسبة أن توثق أمه قدميه بسعف تعقدها عقدات ثلاث وتضعه على باب مسجد أثناء صلاة الجمعة ، وتسأل بعد الصلاة أول الخارجين وثانيهم وثالثهم أن يحل كل عقدة من السعف ، ثم تحمل الطفل إلى المنزل مؤمنة أن هذا العمل سوف ينتج الأثر المراد عاجلاً

من العقاقير من يزعمون أنه ترياق أو شاف لبعض الأمراض . وقد يكون لهذه الأدوية بعض التأثير ولكن الخرافة تنسب إليها فضائل لا تُصدَّق . ويرى المصريون حتى غالبية المتعلمين والمهذَّبين فى الخاصيات المفيدة أو المضرة لمختلف المواد النباتية والحيوانية أسخف الآراء . إذ يؤيدها فى بعض الأحوال أحاديث تروى عن النبى ويدعمها اعتبار حكمائهم المشهورين . ويستعمل البادزهر[2] ترياقاً بحكم قليل

(١) وهى تحريف كلمة شحاذة
(٢) حجر البنزهير

من الماء فى طاس تملأ بعد ذلك ويشربها المصاب . ويستعمل لذلك أيضاً وبالطريقة نفسها قدح من قرن الحريت يدعك بقطعة من المادة نفسها . ويعالج الكثير من أهل القاهرة مرض البرقان بالشرب من ماء «بئر البرقان» وهو بئر تمتلكها عجوز وتجنى منها فائدة كبيرة ؛ فالبئر فوهتان أسفل إحداهما وعاء جاف للأشياء التى تقذف بها . فتطلب العجوز ممن يرغب استعمال الماء الطبى أن يسقط خلال هذه الفوهة ما تحتاج إليه من سكر وبن الخ

يلجأ المسلمون إلى عادات خرافية شتى يستشيرونها عند التردد فى عمل ينتوون فعله أو تركه . فيستخدم البعض جدولاً يسمى « زائرجة » . وهناك جدول من هذا النوع ينسب إلى إدريس أو أخنوخ . ويقسم الجدول إلى مائة خانة صغيرة يكتب فى كل منها حرف . ويتلو من يستشير الجدول الفاتحة والآية التاسعة والخمسين من سورة الأنعام : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ثلاث مرات . ويضع بعد ذلك أصبعه على الجدول دون أن ينظر إليه ثم يعاين الحرف الذى يشير إليه أصبعه ويدونه ، ثم يدون الحرف الخامس اللاحق للأول ، فالخامس التابع للثانى ، وهكذا حتى يعود إلى الحرف الأول . ويكون من مجموع هذه الحروف الجواب[1]

ويعمد البعض إلى القرآن لحل مشكلاتهم ، ويسمون هذا « استخارة » ، فيرددون الفاتحة وسورة الإخلاص والآية السابقة ثلاثاً ، ثم يتركون المصحف يسقط مفتوحاً أو يفتحونه عرضاً ، ويستخرجون الجواب من السطر السابع فى الصفحة اليمنى ، وكثيراً ما لا يحمل الكلام جواباً صريحاً ، إلا أنه يعتبر إيجابياً أو سلبياً حسبما يدل معناه على الخير أو الشر ، كأن يشير إلى وعد أو وعيد . ويعد البعض بدلاً من قراءة السطر السابع عدد الحرفين الخاء والشين فى الصفحة كلها ، فإذا غلبت الخاءات كانت النتيجة مناسبة : فالخاء تمثل الخير والشين الشر

(يتبع) عبد طاهر نور

(١) أكثر الزائرجات استحساناً معقدة للغاية . ويقضى العمل بالزائرجة حسابات فلكية معقدة

حماسيةٌ لا سياسية

لمعالى الأستاذ رضا الشبيبى

أَلا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْوَطَنِ الْعَانِي
سُهَادِي إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَأَشْجَانِي
وَفِي ذِمَّةِ الشَّعْبِ الْمُضَيَّعِ حَمْلَةٌ
مِنَ الدَّهْرِ أَلْقَاهَا ـ وَحِيدًا ـ وَتَلْقَانِي
وَسَوْمِيَ نَفْسِي فِي الْكِفَاحِ رَخِيصَةً
وَكُنتُ فَتًى إِنْ سَامَنِي الدَّهْرُ أَغْلَانِي
وَنَفْثِيَ مِنْ صَدْرِي شُوَاظاً تَضَرَّمَتْ
بِهِ وَسَرَتْ فِي فَحْمَةِ اللَّيْلِ نِيرَانِي
وَرَدِّيَ كَيْدَ الْكَائِدِينَ عَلَيْهِمُ
وَكَانَ قَمِيناً أَنْ يُضَعْضِعَ أَرْكَانِي
إِذَا كَادَ أَنْأَى النَّاسِ عَنِّيَ كِدْتُهُ
وَإِنْ كَادَ أَدْنَى النَّاسِ مِنِّيَ أَعْيَانِي
رِجَالٌ لَهُمْ فِي الْعُرْبِ دَعْوَىٰ كَمَا ادَّعَىٰ
« بِآلَ زِيَادٍ » قَبْلَهُمْ « آلُ سُفْيَانِ »
لَهُم مَا اسْتَقَامَتْ قَطُّ عِنْدِي طَرِيقَةٌ
وَنَاهِيكَ فِيهِم مِن وُجُوهٍ وَأَلْوَانِ !
تَعَسَّفَ قَوْمٌ بِالْعِرَاقِ وَسَاوَمُوا
عَلَى وَطَنٍ مَا سِيمَ ـ يَوْمًا ـ بِأَثْمَانِ
هُمُ احْتَقَبُوا الْأَوْزَارَ يَقْتَرِفُونَهَا
وَقَالُوا : جَنَىٰ عَمْدًا وَمَا هُوَ بِالْجَانِي !
هُمُ اسْتَعْجَلُوا اللَّذَّاتِ يَنْتَهِبُونَهَا
وَهُمْ بَدَّلُوا بِالْجَوْهَرِ الْعَرَضَ الْفَانِي
وَقَدْ تُنْكِرُ الْحُرُّ الْعِرَاقِيُّ أَرْضَهُ
فَيَنْأَى لِيَدْنُو مِنْهُ مَنْ لَيْسَ بِالدَانِي !

« بغداد » رضا الشبيبى